درس ادبي تاريخي

بقلم جبرائيل جبّور
احد اساتذة الادب العربي في جامعة بيروت الاميركية

٢

حياة ابن عبد ربه (تابع)

ولكن اكان هناك سبيلٌ للهو عند ابن عبد ربه غير الغناء ؟ وجوابنا : نعم ! ولعل بعض هذه السبل كانت من التي تناهى عنها قرآنه ، وقد احسّ في خروجه على شرائع دينه ، آخر حياته ، واخذ يستغفر ربه في شعره :

يا ربّ ، غفرانك عن مذنب أسرفَ ، الا انه نادمُ (١

ترى أكان يشرب الخمر ؟ المرجّح عندنا نعم ! ويتفرّد شعره في تصوير شيء من هذه الناحية من حياته اذ ليس بين كل المصادر التي بين ايدينا ، عدا شعره ، ما يذكر شيئاً عن شربه المسكر ، وفي شعره هذا تناقض من حيث هذا الامر سنحاول تعليله . ففي القصة التي ذكرنا عنه فيما يتعلق بالغناء الذي سمعه من جارية تغني بقصر احد الوزراء ، ابيات منها هذا البيت :

اما النبيذ فاني لست أشربه ولست آتيك الا كرهي يدي(٢

وفيه كما يظهر تصريح انه لا يشرب النبيذ على الاطلاق . واذا تركنا هذا التصريح ونظرنا في شعره نرى مواضع كثيرة يذكر فيها حبّه الخمر وشربه

---

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٧٦ ؛ والثعالبي ١ : ٤١٧

٢) ابن خاقان : ٥١ .

اياها ، ويصفها ويدعو الى شربها بحيث لا يظلّ ادنى شكّ في نفس القارئ ان ابن عبد ربه يشربها:

دع قول واشيةٍ وواشٍ واجعلها كلبي مراشِ
واشرب مشعشعة تسـ ـلّ في العظام وفي المحاشي
حتى ترى العـود المسـ ـنّ م جا ادقّ من الحشاشِ(١

واسمع قوله ايضاً :

أصفى اليك بكأسه مصفي صلت الجبين ، معقرب الصدغ (٢

...

كاس تولد بالمحبة بيننا طوراً ، وتترغ اياً ترغ .
في روضةٍ درجت بزهرها الصبا والشمس في درج من الفرغ ،
واشربْ بكفّ اغنّ عقرب صدغه للقلب منك عيتة اللدغ .

واسمع ايضاً وصفه للرّاح ودعوته الى شربها :

وحاملةٍ راحاً على راحة اليد مورّدة تسقى بلون مورّدِ ،
متى ما ترَ الابريق للكاس راكعاً تصلّ له من غير طُهر وتسجدِ (٣
على ياسمين كاللجين وترجس كاقراط درّ في قضيب زبرجدِ
بذلك وهذي قالهُ ليلك كله وعنها فسل،لا تسأل الناس عن غدِ(٤

واسمع قوله في وصف نشوته من خمرتين: خمرة اللحظ ، وخمرة الكاس:

بزمام الهوى امتّ اليـ ـه ، وبحكم العقار اقضي عليه ، (٥
بابي من زهـا عليّ بوجـ ـه كاد يدمى لما نظرت اليه !

---

١) ابن عبد ربه ٣ : ٣٢٨ ؛ والثعالبي ١ : ٤٢٢ ، ٤٢٤

٢) ابن عبد ربه ٣ : ٣٢٧ ؛ والثعالبي ١ : ٤٢٢ — هذا البيت والابيات التي تليه من البحر الكامل ، وقد اوردها ابن عبد ربه في عقده ، في كتاب العروض ، شاهداً على العروض التامّ الذي له ضرب أحذّ مضمر [الحذذ يلحق مُتَفاعِلُنْ فتنقل الى فَعِلُنْ اي يحذف منها (علنْ) ويظلّ (مُتَفا) ثم تنقل (مُتَفا) الى (فَعِلُنْ) . والاضمار هو تسكين ثاني مُتَفاعِلُن فتصير مُتْفاعِلُن ، واذا حقها الحذذ المذكور تصير فَعِلُن] ويظهر من البيت الاول ان عروضه وضربه احذّان مضمران بينما العروض في سائر الابيات تامة .

٣) في الاصل: « ترى » و « تصلي » ، اي دون ان يكون لحى عمل فيها .

٤) ابن عبد ربه ٣ : ١٩٩ .

٥) العُقار بضم العين الخمر لعاقرتها اي للازمتها الدنّ ، او لعقرها شاربها عن المشي ، او لانها عاقرت العقل ؛ راجع محيط المحيط : مادة « عقر » .

ناول الكاس واستال بلحظ فسقتني عيناه قبل يديه (١

وله ايضاً شعر في الزهد يذكر فيه نفسه بقرب اجله ودنوّه من الهلاك ، ويلوم ذاته على لهوه في ادمان الخمر ، يستهلّه بقوله مخاطباً نفسه :

انا هو بن باطيةٍ وزير ، وانت من الهلاك على شفير ! (٢

واسمع اخيراً تصريحه في شرح مذهبه في كلا الشرب والغناء ، وهو آخر بيت من قطعة يصف فيها الحبيب والغناء والسكر :

دينا في الساع دين مدينيّ م وفي شربنا الشراب عراقي (٣

اي انه يسمع الغناء على مذهب المدينيّين وطريقهم ، ويشرب الشراب على مذهب العراقيين . وكان المدينيّون يجيزون الغناء ، بينما كان العراقيون يجيزون الشراب(٤ . وفي كتب الادب والتاريخ العربية ذكر لمشاحنات كثيرة في هذا الموضوع بين الحجازيين والعراقيين ليس هنا موضع تفصيلها .

اما التناقض بين هذه الابيات التي ذكرنا لابن عبد ربه وبين البيت الاول « اما النبيذُ الخ » فظاهر . واما تعليله فليس بالامر العسير ، ونرى ان هناك احد امور ثلاثة : اما ان البيت الاول مدسوس على ابن عبد ربه ، لاسيما وهناك اكثر من صورة له(٥ ، او انه قاله وهو يعني انه لا يشرب النبيذ بل يشرب ما هو اقوى من النبيذ من انواع الخمر ، ويجوز انه يقصد انه لا يشرب نبيذ صاحب القصر ولا يأكل خبزه «ولست آتيك الا كسرتي بيدي» ، او انه قاله حقاً وغناه انما كان ذاك آخر حياته وذلك حينما تاب عن غيّه ولهوه ، ولا نظن ان توبته كانت تمنع ان يسمع الغناء ، ونميل الى ترجيح الرأي الاخير . ولا يفوتنا ان نذكر هنا انه قد يجوز انه نظم هذا البيت في شبابه ايام لهوه وصبوته ، ولكنه كان كاذباً على صاحب القصر فيه . واذا فاننا نعتقد ان

---

١) الثعالبي ١ : ٢٦١

٢) ابن عبد ربه ١ : ٣٨٠ ؛ والثعالبي ١ : ٤١٧

٣) الثعالبي ١ : ٢٦٢

٤) راجع الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، طبعة بولاق سنة ١٢٨٥ ، ج ٦ : ٦١

٥) ابن خاقان : ٥١

ابن عبد ربه كان يشرب الخمر ويحبها ويدعو اليها . ولعل شربه اياها كان من بعض الامور التي ارتكبها واستغفر ربه من اجلها طالباً رحمته لا عدله:

يا ويلتا من موقف ما به اخوف من يعدل الحاكم!
أبارز الله بعصيانه وليس لي من دونه راحم.
يا رب، غفرانك عن مذنب أسرف، الا انه نادم! (١

واذا نظرنا الى ما كتبه في العقد في باب الطعام والشراب[٢] نرى انه من المتساهلين احياناً في امر شرب النبيذ يقف منه موقفاً يكاد يشبه موقفه من الغناء[٣]، حتى انه يقول في احد المواضع: « فاما نجد النبيذ قد اجازه قوم صالحون »[٤]

ولقد سلك ابن عبد ربه سبيلاً للهو، غير الغناء والسكر، نرى الاشارة اليها في ما كتبه المؤرخون عنه[٥]. ومن الطبيعي لمن كان اليف الغناء والسكر ان يكون تبع نساء، وقد كان ابن عبد ربه كذلك . وفي بعض ابياته التي ذكرنا بمناسبة شربه الخمر تصريح بسلوكه سبل اللهو مع النساء في مجالس الشرب.

وحاملة راحاً على راحة اليد موردّة تسمى بلون موردّ... (٦

وله اشعار فيها تصريح اكثر من هذا نسكت عن ذكرها[٧]. وهو لم يقتصر في غزله، الذي يُظهر بعض لهوه، على النساء... ولم يفت الذين كتبوا شيئاً من ترجمة حياته ذكر هذه الضروب من اللهو، فقد دوّنوها عندما دوّنوا اخبار توبته، واشاروا الى اشعار زهده التي مخّص فيها اشعار صبوته[٨]. ولم يفت ابن

١) ابن عبد ربه ١ : ٢٠٦؛ والثعالبي ١ : ٤١٧ وفي الاخير «عفواً منك» بدل «غفرانك».
٢) ابن عبد ربه ٣ : ٣٨٠
٣) ابن عبد ربه ٣ : ٤٠٠ و ٤٠١
٤) » » ٣ : ٣٨٠
٥) ابن خاقان : ٥١ و ٥٢ : والذهبي : ٣٨؛ وياقوت ٣ : ١٧ — ١٩
٦) ابن عبد ربه ٣ : ١٩٩
٧) المقري، طبعة اوربة، ٣ : ٣٨٤ : والثعالبي ١ : ٤٢١ و ٤٢٧
٨) ابن خاقان : ٥٢ ؛ والذهبي : ١٢٩ : وياقوت ٣ : ٧١

عبد ربه نفسه ، ايام توبته ، ان ينظر الى حياته هذه التي قضاها في سبل اللهو والغي والفساد نظر النادم الحزين قال :

زمان كان فيه الرشد غيّاً ، وكان الغيّ فيه من رشادي(١

وله من قطعة :

الا يا زين قلبي للشبا ب العفر اذ ولّى ،
جعلت الغيّ سربالي ، وكان الرشد لي اولى - ٢١

هذا جلّ ما نعلمه عن شبابه من هذه الناحية . ولعله قد قضى اكثره في قرطبة ، اذ يظهر انه مدح اميرها محمد بن عبد الرحمن بن الحكم(٢) ؛ وقد مات محمد هذا سنة ٢٧٣ هـ(٤) . اي حينما كان عمر ابن عبد ربه ٢٧ عاماً ، وقد كان ملك هذا الامير ٣٤ سنة(٥) ، اي انه اعتلى العرش قبل ولادة ابن عبد ربه بسبع سنوات . واذا راجعنا تاريخ الحقبة الاخيرة من حكم هذا الامير نرى ان الفتن كانت منتشرة في اكثر بقاع الاندلس وان رجلاً باسم عمر ابن حفصون كان يهدّد سلطة الامويين حتى يكاد يقضي عليها(٦) ، وأن قرطبة كانت المركز الوحيد لاتباع الملك وحشمه وشمرائه(٧) .

وكذلك نظن ان ابن عبد ربه قضى سنتي ٢٧٤ و٢٧٥ هـ في قرطبة ملازماً الامير المنذر بن محمد الذي يذكر الضبي انه كان من ممدوحيه(٨) . ويذكر ابن عبد ربه في عقده شيئاً من تاريخ هذا الامير وحربه مع عمر بن حفصون ، وينعت ابن حفصون بالمارق الفاسق(٩) . ويظهر من كلام ابن عبد ربه انه كان على صلة بالامير المنذر بن محمد ، فيذكر صفته دون ان يستند الى احد ، بينما تراه عند ذكره سيرة الامير محمد ، والد المنذر وسلفه ، يستند

---

١) الثعالبي ١ : ٤١٦
٢) الثعالبي ١ : ٤٢٤ ، الغفر : بمعنى المغيث المنكر
٣) الضبي : ١٢٧
٤) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٠
٥) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٠
٦) راجع Dozy, p. 308, 336
٧) راجع Dozy, p. 308, 336
٨) الضبي : ١٢٧
٩) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦١

الى الفقيه بقي بن مخلد[1] ، احد اساتذته ، وينقل عنه رواية وصف الامير وبعض اخباره . ويذكر ابن خلكان ان لابن عبد ربه في المنذر هذا قصيدة مدحه فيها مطلعها :

بالمنذر بن محمد شرفت بلاد الاندلس ،
فالطير فيها ساكنٌ ، والوحش فيها قد انس (٢)

وعاصر ابن عبد ربه الامير عبدالله وقد وفي هذا عرش قرطبة سنة ٢٧٥هـ[2] ، وابن عبد ربه في التاسعة والثلاثين من عمره . وقد لازمه لوقتٍ ما ومدحه[3] .

وزى في العقد ارجوزة لابن عبد ربه في العروض يظهر انه قدّمها للامير عبد الله حيث انه يذكر مدحه للامير في آخرها فيقول :

فالحمد لله على نعمائه حمداً كثيراً ، وعلى آلائه .
يا ملكاً ذلت له الملوك ، ليس له في ملكه شريك ،
ثبّت لعبدالله حسن نيّته واعطفه بالفضل على رعيته . (٥)

ويذكر دوزي (Dozy) في كتابه *Spanisb Islam* ان قائداً عربياً باسم ابرهيم ابن الحجّاج ظهر على مسرح النزاع في الاندلس واقام في اشبيلية امارةً يحكمها بحيث كان يعترف في بعض الاحيان بسلطان الامير عبد الله . وكان ابن الحجاج ، فيما يذكر دوزي ، اميراً وتاجراً وقائداً محباً للآداب والفنون ، وقد وفد اليه العلماء من الجزيرة العربية ، وكان بينهم ابو محمد العذري النحوي الحجازي . وغنّى في قصره المغنون والمغنيات من بغداد منهنّ الشاعرة المغنية الجميلة قمر[6] . وهنا يذكر دوزي — دون ان يعلمنا بالمصدر الذي يستند اليه — ان شعراء قرطبة ، الذين كادوا يموتون جوعاً لبخل الامير عبد الله ، وفدوا على ابن الحجاج وغادروا عبد الله برأسهم « شاعر البلاط » ابن عبد ربه نفسه[7] .

وكان ذلك ، فيما يظهر من كلام دوزي ، بعد السنة ٩٠٢ مسيحية ، حول

١) ابن عبد ربه ٣ : ٢٦٠ ، وفيه محمد بدل مخلد ، ولعلها خطأ من الناسخ .
٢) ابن خلكان ١ : ٤٦ ٣) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦١
٤) النبي : ١٢٧ ٥) ابن عبد ربه ٣ : ١٩٨
٦) راجع Dozy, p. 378 ٧) راجع Dozy, p. 379

السنة ٢٩٠ هـ[1]. اي عندما كان ابن عبد ربه في الرابعة والاربعين من عمره. والغريب اننا لم نعثر على شيء من وصف حياة ابن عبد ربه عند هذا القائد. فلا ابن عبد ربه يذكر هذا القائد في عقده، ولا هناك اشارة اليه في شعره او في المصادر التي بين ايدينا، مما يدلّ على ان شعره فيه — اذا كان ما يذكره دوزي صحيحاً — لم يصل الينا؛ ولا نرى الا اشارتين في العقد الى ممدوح كان قائداً[2] مكني في كلا الموضعين بابي العبّاس، ونحن نعلم من دوزي ان الابن الاكبر لابرهيم بن الحجاج كان اسمه عبد الرحمن[3]، كما وانه يذكر اسماء ابناء ابرهيم بن الحجاج وتوليهم قيادة بعد ابيهم، وليس بينهم من يحمل اسم ابي العباس. وقد كان احدهم محمد، فيما يقول دوزي معبود الشعراء.[4] ومات سنة ٩١٥ مسيحية، اي حينما كان عمر شاعرنا نحو خمس وخمسين سنة. ولا يجوز ان يكون محمد هذا (ابن ابرهيم الحجاج) ممدوح ابن عبد ربه المكني بابي العبّاس حيث ان هناك اشارة في ارجوزة ابن عبد ربه التاريخية تذكر ابا العباس القائد في غزوة سنة ٣٠٣ هـ.

فسار في جيش شديد الباس، وقائد الجيش ابو العبّاس[5]

وتذكر الارجوزة سنة موته في خبر غزاة سنة ٣٠٥ هـ اي بعد سنة موت محمد بن ابرهيم بن الحجاج.

وكان في آخر هذا العام نكب ابي العبّاس بالاسلام.

ثم تصف الارجوزة موته في المعركة[6]. ومن يدري لعلّ دوزي قد اخطأ في تدوينه سنة موت محمد هذا.

ونرى في بعض اشعار ابن عبد ربه مسحة من التذمر والشكوى من زمانه وممدوحيه، ليس فيها اشارة توضح الزمن الذي كان يتذمر فيه بالضبط، ولا فيها ذكر لاسماء الاشخاص الذين يشكوهم[7]. ولعل هذه الاشعار تشير الى الوقت

١) راجع Dozy, p. 375
٢) ابن عبد ربه ١: ٤١ و١٠١
٣) Dozy, p. 373, 388
٤) Dozy, p. 388
٥) ابن عبد ربه ٣: ٢٦٦
٦) ابن عبد ربه ٣: ٢٦٧
٧) ابن عبد ربه ١: ١٠٧ و٤٠ و٢٩ و٢١٦

الذي ذكره دوزي من حياة ابن عبد ربه عند الامير عبد الله .

اما حياة ابن عبد ربه ، اول امارة عبد الله ، فقد كانت مما يظهر من كتاب Ribera ميسورة — رغم بخل عبد الله — وقد كثر فيها انعام عبد الله عليه[1] . ومات الامير عبد الله سنة ٣٠٠ ﻫ ، وولي مكانه الملك القرم الازهر — كما ينعته ابن عبد ربه[2] — عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر ، وهو اول ملك بالاندلس دعي بأمير المؤمنين ، وهنا نرى شعراً لابن عبد ربه فيه :

بدا الهلال جديدا ، والملك غضٌّ جديدُ ؛
يا نعمة الله زيدي ما كان فيه مزيدُ .[3]

ويظهر انه لازمه طويلاً واكثر من مدحه ، وقال عنه في عقده : « وقد قلت وقيل في غزواته كلها اشعار قد جالت في الامصار وشرّدت في البلدان حتى أتهمت وانجدت واعرقت ولولا ان الناس مكتفون بما في ايديهم منها لاعدنا ذكرها او ذكر بعضها . »[4]

وتصدّى ابن عبد ربه الى ذكر مغازي الناصر فنظمها ارجوزة ذكر فيها خبر كل سنة على حدة ، ولا نعلم بالضبط ما اذا كان ابن عبد ربه نظم هذه الارجوزة مرّة واحدة آخر حياته او انه كان ينظمها سنة بعد سنة ؛ ويلوح لنا انه نظمها مرة واحدة اذ جعلها ارجوزة واحدة وتكلم عنها كقصيدة واحدة[5] . والغريب ا — وربما تعليل ذلك يسير — ان ابن عبد ربه ينتهي في ارجوزته الى سنة ٣٢٢ ﻫ . ونحن نعلم انه عاش حتى سنة ٣٢٨ ﻫ . ونعلم ان الناصر ظلّ يحارب الى ما بعد هذا التاريخ . قلنا : وتعليل ذلك يسير . اذ ان الخليفة الناصر خذل في هذه السنوات الخمس الاخيرة من حياة ابن عبد ربه ، اي بين ٣٢٣ و ٣٢٨ ﻫ ، بعد انتصاراته المذكورة في الارجوزة[6] . فلعلّ ابن عبد ربه سكت عن تدوين ذلك الخذلان في ارجوزته ، او لعله ذكره ولكنّ من جمع عقده او كتبه بعده

---

١) Ribera, p 123 ، والغريب انه لا يذكر المصدر الذي استند اليه في هذا الامر .
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٢ .
٣) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٢ .
٤) » » ٢ : ٢٦٢ .
٥) » » ٢ : ٢٦٢ .
٦) المقرى ١ : ١٦٦ و ١٧١

قد اهمله وحذفه ، لاسيما وقد كان الجامع لشعره وبعض اخباره الحكم بن عبد الرحمن الناصر نفسه[١] . وقد قام الخليفة عبد الرحمن الناصر بمشاريع عمرانية كثيرة لا نرى لابن عبد ربه شعرًا فيها، خصوصاً « الزهراء » التي باشر الخليفة بناءها قبل موت ابن عبد ربه باربعة اعوام . ويشير ابن عبد ربه الى مآتي الناصر العمرانية بقوله في العقد : « ومن مناقبه (الضمير يعود على الناصر) ان الملوك لم تزل تبني على اقدارها ويقضي عليها بآثارها وانه بنى في المدة القليلة ما لم تبنِ الخلفاء في المدة الطويلة ، نعم ! لم يبق في القصر الذي فيه مصانع اجداده ومعالم اوليته بنيةٌ الا وله فيها اثر محدث اما تزييد او تجديد . »[٢]

وليس في كل ما قرأنا اشارة صريحة الى اشتراك ابن عبد ربه بتلك الغزوات والحروب التي وقعت في عصره بين ملوكه واعدائهم . فلا هو ذكر عن نفسه خبر واقعة اشترك فيها ، ولا احد اشار الى مرافقة ابن عبد ربه اميرًا ما او ملكاً او قائدًا ما في غزوة او دفاع . وكل ما في الامر انه نظم اشعارًا نراها في عقده في وصف الجيوش والحرب وهولها . قد يشتمّ منها انه اختبر بعض محنها[٣] .

وقد كان ابن عبد ربه فقيهاً . ولعله طرق باب الفقه ايام الامير عبد الله حيث كان الاخير يحبّ الفقه وعلوم الدين حتى نعته ابن عبد ربه بالعابد الزاهد التقي النقي التالي لكتاب الله القائم بحدود الله[٤] ، لاسيما وقد جاز ابن عبد ربه وقتذاك شبابه ، وبلغ آخر ايام عبد الله حدود الخمسين ، وبدأ اتجاهه نحو الزهد يظهر . وليس من شك في انه قد اخذ دروساً في الفقه والدين ، وهو في الثلاثين من عمره او قبل ذلك ، لان ابن الفرضي يذكر لنا ان ابن عبد ربه درس الفقه على شيوخ منهم الخشني وابن وضاح وبقي بن مَخلد[٥] . ويذكر Brockelmann ان بقيًا هذا قد مات سنة ٢٧٦ هـ.[٦] اي حينما كان عمر ابن عبد ربه حول ٣٠ سنة .

---

١) الضبي : ١٢٧ .
٢) ابن عبد ربه ٢ : ٢٦٢ .
٣) ابن عبد ربه ١ : ٤٢ و٤٣ .
٤) » » ٣ : ٢٦١ .
٥) ابن الفرضي ١ : ٢٧ ؛ وابن عبد ربه ٣ : ٢٦٠ .
٦) Brockelmann, I, 164

وكانت بعض مدن الاندلس في هذا العصر ، وبالاخص المدن الخاضعة لنفوذ عربي كقرطبة واشبيلية ، ملأى بالفقهاء وعلماء الدين . وكانت الطلبة ، فيما يقول Nickolson ، تعد بالالوف ، وكان اكثرهم طلاب فقه من شريعة ولاهوت لاسيما وقد كان درس الفقه ممهداً لاستلام المراكز الرفيعة[1] .

ولعل درسه الفقه وسيرته كفقيه يفتخران لنا رواية المؤرخين في انه كانت له ديانة وصيانة[2] .

ولقد درس ابن عبد ربه ، فيما يظهر من عقده ومن الاخبار عنه ، العلوم المعروفة في ذلك العصر من نحو وعروض وشريعة وتاريخ وادب . وقد نعته بعض هؤلاء المؤرخين القدماء بالعالم[3] ، ووصفه بعضهم بانه من اهل العلم[4] ، وقال البعض الآخر « وكانت لابي عمر بالعلم جلالة »[5] . وترى اثر هذه النزعة العلمية ظاهراً في عقده من حيث مواضيعه وابحاثه وتصنيفه وتبويبه وعدم تطرف صاحبه في كثير من المباحثات ذات الوجوه المتعددة التي اثيرت في العقد ، واعتداله في الرأي وحججه عند ابداء وجهة نظره .

وربما من الخير ان نشير هنا الى شعر لابن عبد ربه ورد فيه ما يفيد عدم ايمانه بكروية الارض ، وردّه على عالم يدين بهذا الرأي اسمه مسلم ابو عبيدة البلنسي ويعرف بصاحب القبلة ، قال عنه ابن سعيد الاندلسي في «طبقات الامم» انه كان عالماً بحركات الكواكب . ثم قال : وفيه يقول احمد بن محمد بن عبد ربه :

« ابيت الا شذوذاً عن جماعتنا ولم يصب رأي من أرجى ولا اعتزلا

الى ان يقول :

زعمت جرام او بيدخت برزقنا لا بل عطارد او برجيس او زحلا
وقلت ان جميع الارض في فلك جسم محيط وفيهم يقسم الاجلا
والارض كورية حفت السماء بها فوقاً وتحتاً وصارت نقطةً مثلا
صيف الجنوب شتاء للشمال بها قد صار بينهما هذا وذا اولا
فان كانون في صنعا وقرطبة برداً[6] وايلول يذكي فيها الشملا

---

١) Nickolson, p. 420
٢) الضبي : ١٢٧
٣) السيوطي : ١٦١
٤) الضبي : ١٢٧
٥) ياقوت ٢ : ٦٨
٦) كذا في الاصل ، ولعلها بردٌ

هذا الدليل ولا قول غردت به من القوافين بحلي القول والصلة»[1]

وليلاحظ رأي هذا العالم منذ اكثر من الف سنة في كروية الارض ، وانها نقطة في فلك تحف السماء بها من كل جهاتها . وليلاحظ ان علماء زمنه ، ومنهم صاحبنا ابن عبد ربه ، يخالفونه في رأيه هذا ويعدونه شاذًا عنهم خارجاً عن جماعتهم : « ايت الا شذوذًا عن جماعتنا » الخ .

وكان ابن عبد ربه قبل كل شيء اديباً وشاعرًا ؛ وما كتبه في العقد يكفي لاظهار هذا الامر . وكانت ثقافته الادبيّة ثقافة شرقية ، فقد عُني كما عُني غيره من ادباء الاندلس في اول نهضتهم بدرس اخبار الشرقيين واشعارهم وادبهم حتى ان عقده — لولا فصل صغير عن ملوك الاندلس — اقتصر على اخبار المشرق . وقد احسّ المشارقة بهذه الروح الغالبة في ادب الاندلس . رووا ان الصاحب بن عبّاد لما وصل اليه العقد وقرأه قال : « هذه بضاعتنا ردّت الينا . ظننت ان هذا الكتاب يشتمل على شيء من اخبار بلادهم ، وانما هو يشتمل على اخبار بلادنا ، لا حاجة لنا فيه »[2] .

وكان التأثر الادبي على اشدّه بين الاندلسيين وبين اهل اقطار العالم العربي ، وكان كثير من علماء الشرق وادبائهم يرحلون الى الاندلس ، واخذ كثير من علماء الاندلس وادبائها يرحلون الى الشرق في طلب العلم والادب . ونظرة الى ما كتبه المقري[3] عن هؤلاء جميعهم منذ اول القرن الثالث الى آخره تكفي لتبيان ما نذهب اليه من نهضة هؤلاء الاندلسيين الادبية والعلمية وسعيهم في تتبعهم طريق المشارقة فيها . ولم يكن ارسال المستنصر ، آخر هذا العصر الذي نصفه ، وراء كتاب الاغاني واستحضاره النسخة الاولى منه لقاء الف دينار ، وارساله الرسل يشترون له الكتب من مختلف الاقطار[4] ، ولم تكن عناية الصاحب بن عبّاد في الشرق بحرصه على ان يكون عنده العقد ومراجعته اياه وملاحظته عليه ، الّا مظهرًا من مظاهر هذا التأثر الذي كان فيه اهل الاندلس

---

١) ابن سعيد : ٦٤
٢) ياقوت ٢ : ٦٧
٣) المقري ١ : ٢٢١ و ٢٢٥
٤) Nickolson, p. 419

يقتفون آثار اهل المشرق ويثبون سبلهم .

ولم يقتصر تأثير هذه النهضة الادبية العربية على العرب وموالیهم فحسب ، بل تعداهم الى المسيحيين من اهل الاندلس ، فعكف هؤلاء بدورهم على درس اللغة العربية واشعارها وآدابها . حتى ان احد مواطنيهم دوّن اسفه وشكواه وتذمره من حالتهم برسالة تحس فيها اعجاب هؤلاء المسيحيين الاندلسيين في قرطبة باللغة العربية واقبالهم على رشف مناهلها ودرس آدابها واكبابهم على تعلمها وجمع كتبها بحيث كادوا ينسون لغتهم العلمية اللاتينية[1] .

واذا راجعنا المصادر التي استند اليها ابن عبد ربه في عقده نرى انه استند بالاكثر الى علماء المشرق ، فهو ينقل عن المبرّد ، والاصمعي ، والشيباني ، والمدائني ، والنبي ، وابي عبيدة ، وابن المقفع ، وابن سلام الجمحي ، وابن الكلبي ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، وكم كان عشق الاندلسيين لهذا الاديب الاخير حتى روي في تاريخ ابن كثير[2] ان اهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن في بيته من تأليف ابن قتيبة شيء . ويظهر ان روايات هؤلاء الرواة واخبارهم وكتب علوم العرب وآدابها كانت متداولة بين ايدي علماء الاندلس وادبائها ؛ ويقول Nickolson ان قرطبة كانت في هذا العصر من اهم الارساط العلمية والادبية في العالم ؛ وكان في جامعها ، او ان شئت فقل في جامعتها ، العالم ابو بكر القرشي يحاضر في الحديث ، والاديب الكبير ابو علي القالي يبحث مع الطلاب في آداب العرب ، وابن قوطية يدرّس النحو[3] . ويذكر المقري عظمة قرطبة من هذه الناحية في هذا العصر فيقول باسناد عن بعضهم : "ان قرطبة كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء وان اليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء ومن افقها طلعت نجوم الارض واعلام العصر وفرسان النظم والنثر وبها نشأت التأليفات الراقية والسبب في تبريز القوم حديثاً وقديماً على من سواهم ان افقهم القرطبي لم يشتمل قط الّا على البحث والطلب لانواع العلم والادب"[4] . وروى ايضاً ان قرطبة كانت في ذلك العصر اكثر بلاد الله

(١) Dozy, p. 268 (٢) الجزء ٣ القسم ٣ من النسخة الفوتغرافية بدار الكتب المصرية ، راجع ابن قتيبة ٤ : ١٨ (٣) Nickolson, p. 420 (٤) المقري ١ : ٢١٧

كتباً ، وانه اذا مات عالم باشبيلية فاريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها[1] . ولعل من الجميل ايضاً ان نورد هنا هذه القصة التي ذكرها المقري ايضاً ، وهي تظهر اعتناء اهل قرطبة بجمع الكتب حتى صار امر اقتنائها « موضةً »[2] يشتهرون بها قال :

« قال الحضرمي اقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها اترقب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء الى ان وقع وهو بخطّ فصيح وتفسير مليح ، ففرحت به اشدّ الفرح . فجعلت ازيد في ثمنه فيرجع اليّ المنادي بالزيادة عليّ الى ان بلغ فوق حدّه فقلت له : « يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه الى ما لا يساوي » (قال) فاراني شخصاً عليه لباس رياسة فدنوت منه وقلت له : « اعزّ الله سيّدنا الفقيه ، ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت به الزيادة بيننا فوق حدّه » (قال) ، فقال لي : « لست بفقيه ولا ادري ما فيه ، ولكني اقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لاتجمل بها بين اعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخطّ جيّد التجليد استحسنته ولم ابالِ بما ازيد فيه »[3] .

ويقول Lane Poole عن قرطبة في هذا العصر في كتابه *The Moors in Spain* : « لم يكن هناك مدينة في اوربة — اذا استثنينا بيزنطة — تقابل بقرطبة من حيث جمال دورها وقصورها واناقة الحياة فيها والبذخ وثقافة اهاليها وعلمهم »[4] .

فلا عجب بعد كل هذا ان ينشأ ابن عبد ربه النشأة التي وصفنا . وسنرى اثر هذه النشأة في شعره وعقده اللذين سنتصدى لدرسهما ؛ وهناك نواحٍ أخرى من حياة ابن عبد ربه سنعرض لها عند البحث في عقده وشعره ، فنتكلم اذ

١) المقري ١ : ٧٦ و٧٧ و٢١٨ .

٢) من الخير ان نذكر هنا ان ابن عبد ربه يستعمل في العقد كلمة « شهرة » بمعنى « موضة » كأن يقول مثلاً : وكانت الشهرة في تطويل الاكمام ، ثم صارت في تقصيرها .

٣) المقري ١ : ٢١٨ .

٤) Lane Poole, p. 129 139 وراجع ايضاً كتاب Farmer, *History of Arabian Music*, Luzac and Cie. Lond 1929, p. 45.

ذاك عن ميوله وتوثباته وعسى ان لا يفوتنا عندئذٍ وصف بعض نواحي خلقه .

وروى الرواة ان ابن عبد ربه تلب آخر حياته عن امور ارتكبها في شبابه واعترف بذلك اعتراف متألم[1] ، كما قدمنا ، واقلع عن صبوته وعمد الى اشعاره في الغزل ، فمحصها ونقضها بمثيلها في الزهد والمواعظ وسماها «الممحصات» وجعلها على اعاريض تلك وقوافيها ، منها القطعة الغزلية التي اولها :

« هلا ابتكرت لبين انت مبتكرُ »

فانه قد محصها ونقضها بقوله :

يا قادرًا ليس يعنو حين يقتدر ... ماذا الذي بعد شيب الراس تنتظرُ؟
عاينْ بقلبك ، ان الدين غافلةٌ ... عن الحقيقة ، واعلم انما سقرُ
سوداء تزفر من غيظ اذا سنرت ... للظالمين فلا تبقي ولا تذرُ
لو لم يكن لك غير الموت موعظةٌ ... لكان فيه عن اللذات مزدجرُ
انت المقول له ما قلت مبتدئًا : «هلا ابتكرت لبين انت مبتكرُ» (٢

واصيب ابن عبد ربه بالفالج آخر اعوامه[3] ، كما اصيب الجاحظ من قبله ، وابو الفرج الاصبهاني من بعده . وتوفي يوم الاحد لثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الاولى سنة ٣٢٧ هـ. ، وهو ابن احدى وثمانين سنة وثمانية اشهر وثمانية ايام ، ودفن يوم الاثنين في مقبرة بني العباس[4] .

---

١) ابن خاقان : ٥٢ ؛ وياقوت ٢ : ٧١ .

٢) ابن خاقان : ٥٢ والضبي : ١٢٩ ؛ يذكر الابيات مع بعض اختلاف في رواية البيت الاول .

٣) ابن الفرضي ١ : ٢٧ ؛ وابن خلكان ١ : ٤٦

٤) » » ١ : ٢٧ » » ١ : ٤٦ ؛ وحاجي خليفة ٢ : ١٣٤

ويذكر Wüstenfeld في p. 35, No. 107 ان كلمة العباس في عبارة مقبرة بني العباس خطأ من ابن خلكان ، ولذلك فقد وضع موضعها كلمة « الامويين » . ولا نرى موجباً لذاك ، لاسيما وليس لدى Wüstenfeld مصدر يستند اليه في هذا الامر . ولم يتفرد ابن خلكان بذكر ان المقبرة لبني العباس فقد سبقه ابن الفرضي كما رأينا وتابعها على ذلك حاجي خليفة ، كما وان اسم العباس لم يكن غير معروف بالاندلس ، وقد كان من ممدوحي ابن عبد ربه قائد يكنى بابي العباس ، وترجم ياقوت في معجمه للادباء حياة بقي بن مخلد استاذ ابن عبد ربه ويذكر ان بقياً هذا قُبر بمقبرة منسوبة لبني العباس ، ياقوت ٢ : ٣٦٩ ، فلينتبه الى هذا !